توظيف الانزياح

في تشكيل صورة الشخصية النامية في القصة القرآنية

إعداد

د. فوزية صالح علوي الحبشي

أستاذ الأدب المساعد في قسم اللغة العربية ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة الملك عبد العزيز ـ المملكة العربية السعودية .

الإيميل : Falhapshi@kau.edu.sa

المستخلص

يقدّم البحث الموسوم بـ (توظيف الانزياح في تشكيل صورة الشخصية النامية في القصّة القرآنية) دراسة حول الانزياح في الفعل السردي المسند للشخصية النامية في خطاب القصّة القرآنية باتخاذ قصة كل من (آدم ويونس وموسى عليهم السّلام) نماذجَ للدراسة، كما يدرس البحث الدّور الفاعل للموقف الانزياحي في نمو الشخصية النموذج، وفي تصاعد الحدث السردي حتى وصوله للعقدة السردية ومن ثَمّ الوصول إلى خط الانفراج.

وتنتهج هذه الدراسة الأسلوبية التي ترى في (الانزياح) ركيزة العمل الأدبي ولُبّ الجمالية الأدبية بخروجها عن المألوف والمعنى المباشر البسيط إلى الخطاب العالي ذي المعنى المتعدد، متجاوزة لغة الخطاب إلى عنصر الحدث السردي الذي تتقلد فواعله الشخصيات المنتخبة لهذه الدراسة.

إن مدارسة الفعل الانزياحي للشخصيات النامية في خطاب القصة القرآنية له دوره التأثيري الكبير في إذكاء العملية التواصلية مع المتلقي، حققت بجماليتها واقعية تشكيل الصورة بعيدا عن الكمال الأسطوري، محققة التناغم والانسجام مع المتلقي في ترسيخها للطبيعة البشرية للشخصيات المُثّل، وإمكانيّة التّماهي واقتفاء الأثر لخارطة الطريق المرسومة في السرد لتكون ترياقا لأي تزم مماثل محتمل.

الكلمات المفتاحية: الانزياح، الشخصية النامية، السرد

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، ثم أما بعد ،

فإن الله -سبحانه وتعالى- خلق الكون في نظام متكامل، وجعل له سنن وقوانين منتظمة تتجلّى من خلالها عظمته وحكمته في تصريف الوجود. ومع هذا التنظيم المعجز، هناك ظواهر كونية انزياحية مدمّرة كالزلازل والبراكين تحدث في الأرض بين الحين والآخر، قد تبدو للناظر خرقا أو خروجا عن قوانين الكون المعهودة؛ إما بسبب فظيع أهوالها، أو لعنصر المفاجأة فيها، أو بسبب قصور القدرة البشرية على التنبؤ بها، لكنّها مع ذلك تظل شاهدة على جبروت الله وقدرته وقوته وحكمته الخفية. وهذه الظواهر على أهوالها وفظيع آثارها لكنها لا تخل من وظائف أشار إليها بعض العلماء منها: التنفيس عن درجة الحرارة الباطنية العالية في طبقة الأرض السفلى، ومنها تجدد الأرض وتزويدها بمعادن كثيرة كانت مغمورة في الباطن... إلى غيرها من المزايا[1].

وكما كان الانزياح ظاهرة كونية، فهو أيضا **ظاهرة إنسانية**؛ فالإنسان جزء من هذه الأرض، خُلق من طينتها، وغذاؤه من خيراتها، وقد خُلق فريدا متوترا لا تخلو حياته من صراعات وتوترات وصعود وهبوط بين غرائز جامحة تلصقه بالطين، وروحا متسامية ترقى به للمثل العليا: "فألهمها فجورها وتقواها"[2].فلا تخل هذه النفس من الانزياحات والأخطاء، بل إن ثوابت الدّين تقرّ بحتمية الوقوع في الخطأ والخروج عن المعيار الكمالي، فمن صحيح في ذلك قول النبي - صلى الله عليه وسلم-: " كل بني آدم خطّاء، وخير الخطائين التوابون"[3]. لقد عبّر الخطاب النبوي عن الخطأ البشري بصيغة المبالغة (خطّاء): أي كثير الخطأ، مع هذا فإنّ تتمّة الحديث تشير بفرادة مبهرة بأن الخطأ لم ينزع عن ابن آدم صفة الخيرية، بل إن الخطأ في بعض أحواله قد يرقى بالنفس البشرية إلى مقامات عليّة حين قال: "وخير الخطائين التوابون"، فبهذه الخيرية يتحقق كمال العبودية لله، وتتكشف كمال ألوهية المولى سبحانه وتعالى، وتتجلّى أسمى معاني أسمائه الحسنى وصفاته العلى، كالتواب، والرحمن، والغفور، والعفوّ. يؤكد ذلك الحديث التالي:عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، وجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله تعالى، فيغفر لهم" رواه مسلم.

القرآن الكريم خطاب هو كلام الله المقدس الذي صيغ في فنية معجزة قائمة على الاختيار، وعلى الرغم من أنه قد نزل بلسان عربي مبين[4]، إلّا أنّ خطابه قد انزاح عن معهود العرب في بعض أساليبه ومفرداته؛ فلم يأت مطابقا لطرائقهم، بل نجد له مبتكرات في أساليبه وتراكيبه ومفرداته ما أدهش العرب وأثار انتباههم، ولفت أنظارهم. فالقرآن علاوة على قيمهِ الأخلاقية الجديدة التي نزل بها لهداية البشر، نجده قد أدهش العرب في نظمه وأسلوبه، وأحدث انقلابا هائلا في حياة العرب الفكرية، والثقافية، والاجتماعية. وبعد أن كان الشعر يعتلي قمّة السلّم القولي، بصفته انزياحا عن لغة الحديث

---

[1] البراكين والزلازل: 78-84. فردريك هـ. بو، ترجمة: الدمرداش سرحان، دار المعارف، مصر: 1971م.
[2] سورة الشمس، آية:8.
[3] أخرجه مسلم، كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبةً، رقم: (2748).
[4] سورة الشعراء، الآية: 195.

اليومي البسيط المألوف، جاء القرآن الكريم ليكون انزياحا على الانزياح[1]. بل وجاء بـ(الحنيفية) التي تحمل في جذرها اللغوي طبيعة انزياحية. فمعنى (حنف) في اللغة: أي انحرف ومال[2]، وجاء بها إبراهيم عليه السّلام حين حنف، أي: عدل ومال عن كل الانحرافات العقدية والفكرية الشائعة في عصره ليثبُت ويستقرّ على عقيدة التوحيد النابذة لجمود الوثنية، والرافضة للعمى العقلي الانقيادي للآباء والأجداد دون بصيرة. فدعا إلى الحنيفية بعد رحلة تفكريّة عميقة تَشَكَّل من خلالها الإيمان الصافي بعيدًا عن الزيف والوهم. وبدون هذه الحركية الانزياحية تركد الحياة وتجمد وتموت، ويفقد الإنسان أهم مقومات الاستخلاف وهو اتخاذ القرار بعد تفكر وبصيرة وعلم؛ لتتحقق نجاته في الدنيا من ظلمات الشرك، ونجاته في الآخرة بدخوله الجنة التي عبر عنها الخطاب تعبيرا انزياحيا بديعا فقال: "فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ"[3].

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث المعنون (توظيف الانزياح في تشكيل صورة الشخصية النامية في القصة القرآنية) في الكشف عن مظاهر الانزياح في صورة الشخصية النامية في القصة القرآنية، ودورها في بلورة الشخصية وتشكيلها تشكيلا واقعيا بعيدا عن المثالية الزائفة أو الكمال المطلق، وذلك بتسليط الضوء على بعض أفعال الشخصيات النموذجية في المواقف التي تُجسّد الضعف البشري دون أن يؤثر هذا الكشف على مكانتها العالية أو يسلبها رمزيتها أو سماتها القيادية الريادية التي اصطفاها الله بها وكلفها لتقود الناس وتخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

إن (الانزياح) في هذه الدراسة ينزاح عن التناول التقليدي المتمركز في لغة الخطاب، بل تجاوز ذلك إلى دراسة الانزياح في مكونات السرد وعناصره، وتحديدا عنصر (الشخصية)، والكشف عن دوره في تشكيل الصورة التكاملية الفاعلة للشخصية النامية، بتسليط الضوء على مواقف الانزياح في الفعل، وأثر ذلك في إذكاء العملية التواصلية مع المتلقي، وتوظيفه في تحقيق الانسجام والتناغم مع واقعية السّرد.

أهداف البحث:

يسعى البحث لتحقيق الأهداف التالية:

-الكشف عن مظاهر الانزياح في أفعال الشخصيات النامية في القصة القرآنية بتناول شخصية آدم وموسى ويونس -عليهم السلام- نماذج للدراسة.

- إبراز وظائف الانزياح السردي في تشكيل الشخصيات المحورية، وفي نمو الأحداث وتصاعدها، حتى الوصول إلى مرحلة التأزم ومن ثم الانفراج.

- إبراز دور الانزياح في إذكاء العملية التواصلية مع المتلقي، وإثراء المعنى بالدلالات المتجددة.

---

[1] ينظر: الا نزياح في التراث النقدي والبلاغي: 29، أحمد محمود ويس. اتحاد كتاب العرب. دمشق: 2002م.
[2] مقاييس اللغة لابن فارس، مادة حنف. 39/2. دار الجيل، تحقيق: عبد السلام هارون. 1992م. أحمد بن فارس بن زكريا.
[3] سورة ال عمران: آية: 185.

منهج البحث:

ينتهج البحث المنهج الأسلوبي، الذي ولد منه مصطلح الانزياح، وعُدّ فيه معيارا للكلام العالي، أو لأدبيّة الأدب، وبه فُرّق بين الكلام الأدبي عن غيره من النمطي المألوف، حيث عرّفه أحمد ويس الانزياح بأنه: "الاستعمال المبدع للغة -مفردات وتراكيب وصور- استعمالا يخرج بها عمّا هو معتاد ومألوف بحيث يؤدي ما ينبغي له أن يتصف به من تفرد وإبداع وقوة وأسر"[1]، والانزياح فنّ قائم على الاختيار، فهو قرين الإبداع بما ينتقيه من أشكال التعبير الخارجة عن النمطية والألفة، كما أنه يتسع ليشمل تلك الاختيارات الفريدة للغة وللأدوار العاملية أو الوظائف السردية التي تتقلدها الشخصيات داخل القصّة في مفارقات مثيرة للدهشة والسؤال، نتج عنها تعددية في الدلالة، وانديا حًا في المعنى، واتساعا في المعرفة.

[1] الانزياح في التراث النقدي والبلاغي: 5.

التمهيد :

مصطلح الانزياح

إن الناظر في معنى مصطلح الانزياح أسلوبيا يجد أنه لا يبتعد عن معناه في المعجم اللغوي؛ فالانزياح في اللغة: مصدر من الفعل المطاوع (انزاح) أي ذهب وتباعد[1]، وأسلوبيا هو: "الخروج عن المعيار لغرض يقصد إليه المتكلم"[2]. وقد تعددت المصطلحات الدالة على الانزياح في الدراسات الأسلوبية الحديثة لتتجاوز الأربعين مصطلحا كما ذكر أحمد ويس في كتابه (الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية)[3]، منها: **العدول، والانحراف، المخالفة، والإزاحة، والانتهاك، والكسر، والخرق، والمفارقة، والخطأ**، وغيرها، وقد أشار في استطرادات طويلة إلى اختلافات النقاد حولها قديما وحديثا، ويقرر أنهم مع اختلافهم يُجمعون على أهمية وجمالية الانزياح على مستوى الخطاب وعلى مستوى الدلالة؛ فهو عنصر يمنع من الاعتياد بالإضافة إلى أنه يحقق عنصر **المفاجأة والدهشة**، لذا فهو من العناصر الجوهرية للإبداع في الخطاب الأدبي[4].

الانزياح في الخطاب السردي

أما الانزياح في الخطاب السردي فله أسسه ومعاييره؛ فالخطاب السردي يقوم على المرونة في ترتيب وعرض مكوناته السردية من حدث، وشخصية، وزمان، ومكان، فهو في زمنيته مثلا، لا يعتمد على خطية الزمن الصارمة في الانتقال من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل، بل ينزاح عنها إلى الاختيار الحر القائم على عنصر السببية، وقد نشهد فيه استرجاعا زمنيا أو استباقا. وتركّز هذه الدراسة على تناول وتحليل انزياحية عنصر الشخصية النامية في مواقفها وأدوارها العاملية، وكشف الضوء عن دور هذا الانزياح في تنامي الشخصية والسرد معا. فالمتأمل في تعريف الشخصية النامية يجد بدءا تعدّد مسمياتها، فهي النامية، والمحورية، والرئيسية، والنموذجية، ويجد القارئ أنها لا تخلو من الطبيعة الانزياحية، بل تعدّ هذه الطبيعة من أُسس تشكيلها، فهي التي تكسبها جمالية في التصوير، وكثافة في المعنى، وقوة تأثيرية في المتلقي. فيظل القارئ يبحث عن نفسه بينها، فيتلمس فيها ضعفه وانفعالاته من خلال أفعال الشخصية وردود أفعالها، وينظر إلى انهزاماتها وانتصاراتها، نجاحاتها وخيباتها. فالشخصية القصصية في السرد تتيح للقارئ خوض التجارب الصعبة، دون التعرض لمخاطرها المباشرة، وأزماتها العميقة، وقد تتعمق العملية التواصلية لدى المتلقي لتصل به إلى ما يسمى سيكلوجيا بـ (التماهي Identification)، حين تتماهى شخصية القارئ مع شخصية البطل في الخطاب السردي، فيرى فيها نفسه في موقف ما. والتماهي هو: "آلية سيكولوجية لا شعورية من أكثر الآليات أهمية في تشكيل الشخصية، حيث يتمثل الشخص بواسطتها أحد مظاهر أو خصائص شخص

---

[1] لسان لعرب لابن منظور مادة زيح.

[2] الأسلوبية الرؤية والتطبيق: 7، يوسف أبو العدوس، دار المسيرة، الأردن، 2007م. من الانزياح الدلالي في سورة البقرة ص:6)،

[3] الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية: 33، أحمد محمد ويس، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2005م.

[4] شعرية الانزياح: 131. خيرة جمرة العين. مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر، الأردن، 2002م. وينظر: الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية: 135، أحمد ويس.

آخر ويتحول كليا أو جزئيا تبعا لنموذجه"[1]. لذا فإنّ وجود تلك المفارقات في صورة الشخصية وتفاوتها بين القوة والضعف، والكمال والنقص، والصعود والهبوط، والإقدام والإحجام عامل تأثيري له أهميته في التلقي، حيث تُكسب العمل السردي جمالية لا تبتعد كثيرا عن الجمالية الانزياحية في الخطاب الأدبي حين تُلوى أعناق المتناقضات لتنصهر في قالب الصورة الشعرية في انسجام مبدع. فتكون هذه الصورة الانزياحية في مشهد ما سببا في إغناء الشخصية وإكسابها الحركة والدينامية، كما عبر ميشال زيرافا حيث وسم الشخصية المحورية بأنها "هي تلك الشخصية التي يشكل كل منها عالما كليا معقدا في الحيز الذي تضطرب فيه الحكاية المتراكبة وتشع بمظاهر كثيرا ما تتسم بالتناقض، بينما وصف نقيضها من الشخصيات الثانوية أو المسطحة أو الثابتة بأنها "التي تمضي على حال لا تكاد تتغير ولا تتبدل في عواطفها ومواقفها وأطوار حياتها بعامة"[2]. كما أنّ هذه الطبيعة الانزياحية من شأنها أن تزوّد السرد بعنصر (المفاجأة) الذي أولاه (فوستر) أهمية كبيرة في صوغ الشخصية النامية المؤثرة حين قال: "فإن فاجأتنا [أي الشخصية النامية] مقنعةً إيانا فهي مدوّرة، وإن لم تفاجئنا فهي مسطحة"[3].

إن المتأمّل في الشخصيات النامية في القصة القرآنية يجد أنها قد حظيت بدراسات عديدة بمناهج مختلفة تركزت في معظمها على السياق أو الدلالة، بينما ينصبّ تركيز هذه الدراسة على الجانب الانزياحي في تصوير الشخصية النامية في خطاب القصة القرآنية، والوقوف على وظائف هذ الانزياح القائم على الاختيار ودوره الفني والجمالي الذي لا يختلف فيه عن توظيف الانزياح في لغة الخطاب حيث تنعتق كل من اللغة والشخصية من الرتابة والنمط المعهود والصورة المباشرة.

إن الشخصيات النامية أو الشخصيات المُثُل أو النموذجية في خطاب القصة القرآنية تتسم بسمات خاصة تمتاز بها عن الشخصيات في النماذج السردية الأخرى، فهي على رمزيتها العليا لم تُصوّر في الخطاب القرآني كمالا مطلقا كما هي شخصيات الأبطال في الفنون السردية القديمة، كشخصيات الملاحم اليونانية مثلا، حين استحالت شخصياتها إلى أنصاف آلهة. بالمقابل لم تكن الشخصية القرآنية شخصية ورقية، أو مورفيما فارغا كما عبّر عنها بعض علماء السرد الحديث، حيث يصيغها الراوي لتجسّد بفنيتها فكرة مّا، دون أن يكون لها صدىً حقيقي في الواقع[4]. إنّما تتحدد خصوصية الشخصيات البشرية النامية في القرآن بأنها كائنات بشرية حقيقية من لحم ودم، انتُزعت من تاريخها لتعيش في كل زمان ومكان؛ لتعكس نظرة القرآن الكلية للوجود، واكتسبت نمطيتها الخالدة في تمثيلها للأفكار الخالدة المتمركزة بين تقاطبات الخير والشر دون أن تفقد طبيعتها البشرية، لذا فإنّ قراءتها ينبغي أن تكون قراءة فاحصة بعيدة عن الاختزالية والجمود إلى القراءة الشمولية لجميع جوانبها ومفارقاتها. فمن الملاحظ للقارئ الحصيف سمة التكثيف الشديد في صوغ الشخصية القرآنية، فلا نجد لها في الخطاب وصفا مفصلا لأبعادها الجسدية أو مظاهرها الشكلية الخارجية بقدر ما يتم التركيز على أفعالها وردود أفعالها، وبالتالي نجدها قد تحررت من القيود الزمانية والمكانية، ومن

[1] معجم مصطلحات التحليل النفسي: 130، ترجمة: مصطفى حجازي، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1987م.
[2] في نظرية الرواية – بحث في تقنيات السّرد: 100، عبد الملك مرتاض، الكويت، عالم المعرفة، 1998م.
[3] ينظر: في نظرية الرواية – بحث في تقنيات السرد: 100، عبد الملك مرتاض، عالم المعرفة، الكويت، 1998م.
[4] ينظر: عنصر الشخصية في الأدب الحديث عبر عنه النقاد بأنه (كائن ورقي)، وما هو إلا عنصر لساني لا يساوي أكثر مما تساوي العناصر السردية الأخرى مثل اللغة والفضاء، والزمان والحدث، فهي لا تعدو أن تكون كائنا لغويا مصنوعا من الخيال المحض. ينظر في نظرية الرواية:90، عبد الملك مرتاض.

قيود الشكل ليتركز الخطاب على الرسالة الموحية الهادية للإنسانية في كل مكان وزمان. بالمقابل لم يغفل الخطاب طبيعتها البشرية وديناميتها الحركية صعودا وهبوطا، قربا وابتعادا، قوة وضعفا، فاكتسبت بهذه الحركية طاقة تأثيرية محفوفة بالدهشة والمفارقة التي تتسرب إلى المتلقي من حيث "تولد غير المنتظر من المنتظر"، فتوقِع في القارئ انتباها عاليا، وتخلق فيه وعيا يستحثه لقراءة الدلالات الكامنة من خلال سوق تلك الانزياحات، وتحفز لديه الأسئلة: لِمَ قامت الشخصية بهذا الفعل؟ ولم كشف الخطاب عن هذا الضعف في أكثر من موضع؟! لم تنوعت الأساليب في عرضه؟! وما وظيفة هذا الكشف على مستوى الدلالة والمعنى؟ وما أثر ذلك على العملية التواصلية مع المتلقي؟

هذا البحث يدرس الطابع الانزياحي في نماذج من الشخصيات النامية في القرآن الكريم، باختيار شخصية آدم، ويونس، وموسى نماذج للدراسة، والوقوف على وظائف هذه الانزياحات في تشكيل الصورة التكاملية للشخصية، وأثرها في إحداث التلاحم بين النموذج العالي وبين الواقع الحقيقي البعيد عن الوهم والخيال، وأثر ذلك على المتلقي.

المحور الأول :

توظيف الانزياح في تشكيل شخصية آدم عليه السلام.

آدم عليه السلام هو أبو البشر جميعا، وهو أول الأنبياء والرسل عليهم السلام[1]، وقد اصطفاه الله وصالح بنيه على جميع المخلوقات، فمن البدء خلقه الله بيديه، فلما سواه، نفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وفضله عليهم بالعلم. وفوق ذلك يرى ابن القيم أفضلية آدم عليه السلام وصالح بنيه على الملائكة، ويعلل وجه أفضليته عليهم؛ بأن "عبادة الملائكة بريئة من شوائب دواعي النفس والشهوات البشرية، فهي صادرة عن غير معارضة، ولا مانع ولا عائق ... أما عبادات البشر فمع منازعات النفوس، وقمع الشهوات، ومخالفة دواعي الطبع فكانت أكمل، ولهذا كانت أكثر الناس على تفضيلهم على الملائكة لهذا المعنى وغيره"[2].

وقد وردت قصة آدم عليه السلام في مواضع متعددة من القرآن الكريم في خطابات مختلفة تتفاوت طولا وقصرا، بأساليب تتناغم وتنسجم مع سياقات السور التي وردت فيها. وعلى الرغم من تعدد أساليب العرض في قصته إلا إنها في مجموعها لم تُغفل ذلك الموقف الانزياحي في قصته والمتمثل في (الأكل من الشجرة المحرمة) وما سبقه وما تلاه من أحداث، حيث تسبب ذلك الفعل في انعطافة كبيرة في مسار السرد، كما تسبب في نمو الشخصية، وأسهم في تشابك الأحداث حتى بلوغ العقدة السردية والوصول إلى هرم التوتر، ومن ثم التجلي والانفراج وحصول الحل في نهاية مفتوحة مبهرة.

ومن الملاحظ أن الحدث المجسّد للفعل الانزياحي في قصة آدم عليه السلام متمثلا في (الأكل من الشجرة) قد عُبّر عنه بتعبيرات وأساليب مختلفة كانت كالتالي:

1- الإزلال والإخراج: في قوله تعالى في سورة البقرة " فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ.."[3]
2- الفتنة والإخراج: في سورة الأعرف: " يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنّة"[(4)].
3- النسيان، وغياب العزم: كما في سورة طه "وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰٓ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا "[5] طه: 121
4- العصيان، والغواية: " وَعَصَىٰٓ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ"[6]
5- القرب والظلم: " وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فتكونا من الظالمين " البقرة: 35، الأعراف
6- الإخراج والشقاء: "فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ " طه: 117

---

[1] على خلاف بين العلماء في رسالته.
[2] ينظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين: 497،498، ابن قيم الجوزية، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة: 1429هـ.
[3]
[(4)] سورة الأعراف، آية: 27.
[5]
[6]

وفي هذا التنويع التعبيري حمولة دلالية تنداح بالمعاني، تظهرها الدراسة من خلال التحليل التالي:

الإزلال والإخراج:

في سورة البقرة اُختزل الحدث الانزياحي الذي قامت به الشخصية النامية في جملتين مكثفتين: "فأزلهما الشيطان عنها، فأخرجهما مما كانا فيه"، وذلك بإسناد الفعل إلى الشيطان، وإيقاع أثره على آدم وزوجه عليهما السلام. ومعنى أزلهما الشيطان: أي أوقعهما في الزلل الذي كان سببا لخروجهما من الجنة. ومن جمالية هذا التعبير أن (أزلّهما) تتعدد فيها المعاني، فهي إمّا من (الإزلال)، وإمّا من (الإزالة). ومعنى الإزلال: هو من جعْل الغير زَالاً أي قائماً به الزلل، وهو كالزَلق، يقول ابن عاشور: "الزلل أن تسير الرجلان على الأرض بدون اختيار لارتخاء الأرض بطين ونحوه، أي ذاهبة رجلاه بدون إرادة، وهو مجاز مشهور في صدور الخطيئة والغلط المضرّ ومنه سمي العصيان ونحوه بالزلل[1]. وبالتالي تنتمي الصورة إلى فضائية انزياحية مجازية يتخذ فيها الزّلل شكل الهبوط المضطرب غير الإرادي. وفي إسناده إلى الشيطان وتعديته إلى آدم وحواء ما يدل على خبث الفاعل وغفلة المفعول، حيث قصديّة إبليس ظاهرة في الإيقاع، ولكن قصديّة آدم وحواء في الوقوع لم تكن ظاهرة، بل قائمة على طُعْم الرغبة في الحصول على الوعود الإبليسية الكاذبة، وليس تحديا لله ولا كبرا ولا تعنتا. والمعنى الثاني/ الإزالة[2] التي وردت في قراءة حمزة فكان الحدث الانزياحي بمعنى: الإبعاد، وعلى هذه القراءة يتعين أن يكون ضمير (عنها) عائداً إلى الجنّة لا الشجرة، وبالتالي تنتمي إلى فضاء الصورة الحقيقية لا المجازية حيث الإزالة بالخروج من فضاء الجنّة والهبوط إلى الأرض.

ومن خلال تعددية المعنى في الإزلال أو الإزالة نتلمّس حركية الحدث المتجهة نحو القدر المرسوم الذي أشير إليه في افتتاحية القصة في الحوار الدائر بين الله والملائكة: " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ "[3] فكان قدر الله عليه جار على آدم بأن يستخلف على الأرض، ولم يكن ذلك ممكنا إلا من خلال تلك الانعطافة السردية من خلال ذلك الحدث الانزياحي الذي كان سببا لبدء الحياة التكليفية على الأرض، لتكون الجنة في البدء دار تكريم لمقام البشرية في أبيهم آدم عليه السلام، ومن ثَم تكون ثوابا تاليا، وجزاءً لمن صلح واستقام في الآخرة. إنّ تلك البؤرة الانزياحية في قصّة آدم عليه السلام كانت حتمية راسخة، وقد سلط عليها الضوء لتكون حاضرة في الوعي، راسخة في الذهن يستلهم منها القارئ خطى الوقوف بعد الزلة، والتوبة بعد الذنب، مستشعرا عداوة الشيطان، مستلهما سعيه الدؤوب في الإيقاع والإغرار والخداع، لتظل القصة حاضرة في الوعي أثناء سعيه الإصلاحي الإعماري الاستخلافي في الأرض، ويبقى مستحضرا أيضا فضاء الجنة / دار التكريم، لتكون الوجهة والبوصلة في السعي لذلك المآل حاضرة ومستقرة في الوعي.

2- الفتنة والإخراج:

"يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنّة"[(4)].

---

[1] ينظر: التحرير والتنوير: 433/1.
[2] قرأ حمزة: " فأزالهما"، ينظر: تفسير التحرير والتنوير: 1/ 434.
[3] سورة البقرة، آية: 30.
[(4)] سورة الأعراف، آية: 27.

في هذا السياق التحذيري لبني آدم، افتتح الخطاب بالنداء والنهي، ثمّ عُبّر عن الموقف الانزياحي بالفتنة المسندة إلى الشيطان، وما الفتنة إلا معنى من معاني الانزياح؛ فالفتنة في أصل معناها: الإزالة والصرف عن الشيء. وهي: الابتلاء والاختبار[1]، وأصلها مأخوذ من قولك: فتنتُ الفضة والذهب، أذبتهما بالنار ليميز الردي من الجيد. فعُبّر عن الانزياح بالفتنة الصّارفة عن الصواب والامتثال لأمر المولى عز وجل، فكان من تبعاتها على أبيهم آدم: الإخراج من الجنة/دار النعيم والكرامة، والهبوط إلى الأرض/ دار الكدّ والشقاء. لقد فُتن آدم عليه السلام من باب الطمع والرغبة، فاختلطت عليه الأمور، فضيّقت عليه مساحة الحلال الواسع الرغيد، فصرف عنه إلى الشجرة المحرمة. فوقع في الزلل وأُخرج من الجنة.

7- النسيان وغياب العزم:

"وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا " طه 115

في هذا الموضع عُبرّ عن الفعل الانزياحي بـأمرين هما: (نسيان العهد، وغياب العزم) والنسيان في الآية – بترجيح معظم المفسرين - ليس النسيان المضاد للتذكّر، فلا يحاسب الإنسان على الخطأ والنسيان وما استكره عليه، ولكنه النسيان هنا بمعنى: الترك، "أي ترك الأمر والوفاء بالعهد"[2]. وترك العزم: هو ترك توطين النفس على الفعل[3]. فالمعرفة موجودة في الوعي، ولكن اعتراها غشاء الغفلة الذي أبهتت صورة العهد، فتسبب ذلك في ضعف الوفاء به والأخذ بموجبه، فوقع آدم في المحذور. وذلك أنه حين انزاح العهد عن مركز الوعي وأبعد عن حضوره في الذهن، وغُشّي عليه بغطاء الغفلة والرغبة، انزاح التحذير عن مركز الوعي، وقد تم ذلك بفعل الاستماع المكرور لوسوسة الشيطان وخداعه وإغراءاته مما تسبب في تسهيل الاقتراب من المحظور على الرغم من المعرفة التامة به.

العصيان والغواية

"وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ" طه (121)

في هذا الموضع عُبر عن الانزياح في فعل الشخصية تعبيرا واضحا صريحا بـ(العصيان والغواية)، وهو وصف كاشف صريح عن الانزياح، **فالعصيان** هو: مخالفة الأمر والخروج عن الطاعة[4]، **والغواية** هي: الضلال والخيبة والفساد[5]، وقد جاءت الغواية تبعة من تبعات العصيان وأثرا عنه، فقد وردت في عقبه متسببة عنه. فالمخالفة بعد المعرفة يعقبها الضلال والخيبة، ومن رحمة الله أن شرع التوبة ليؤوب العبد ويصلح حاله بعدما أفسدته المعصية.

---

[1] انظر لسان العرب مادة: فتن، وانظر مقاييس اللغة مادة فتن.

[2] وهذا قول مجاهد وأكثر المفسرين، ومنه: " نسو الله فنسيهم" وقوله: " يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كاللذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون" الحشر. وفسرها ابن عباس بالسهو والنسيان، وإنما أخذ الإنسان من انه عهد إليه فنسي. وفي مقاييس اللغة: (نسي) النون والسين والياء أصلان صحيحان: يدل أحدهما على إغفال الشيء ، والثاني على ترك شيء.

[3] تفسير القرطبي

[4] لسان العرب، مادة عصى: 10 / 179.

[5] لسان العرب، مادة غوى: 104/10.

10- القرب، والظلم:

" وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فتكونا من الظالمين " البقرة: 35.

و(الظلم) في اللغة: هو تجاوز الحد، وقد عبر به تعقيبا على الفعل الانزياحي: (القرب من الشجرة)، في خطاب زمني استباقي استشرافي[1] لغرض التحذير والإنذار. وقد ورد الظلم في الآية بمعناه الكوني العام، فالظلم: "وَضْعُ الشيء في غير موضِعه"[(2)]، والظلم: "الجَوْرُ ومُجاوَزَة الحدِّ"[(3)]، وفي هذا المعنى المعجمي صورة انزياحية تحيلنا إلى تقاطب الداخل والخارج، والقريب والبعيد. فالقرب من المحذور خروج عن نطاق المسموح، ومجاوزة لحظ النفس من الفضيلة بحرمانها من دوام الكرامة، وذلك لإتيانهما ما يخل بالكرامة المفضي والمؤدي لزوال مقام التكريم بالنعيم بمجاوزة حد الامتثال [(4)]. والعجب أننا لا نجد في خطاب القصة في جميع مواضعها نهيٌ عن الأكل من الشجرة، بل جرى النهي عن الاقتراب منها، لأنّ الاقتراب من المحذور هو أول منازل الاختراق والانزياح عن الاستقامة.

8- الإخراج والشقاء

"فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ" طه: 117.

عُبّر في الآية السابقة عن الانزياح بـ(الإخراج)، والمتتبع لمعاني الانزياح يجد (الخروج) أصلا من أصوله. كما لا يبعد معنى (الشقاء) أيضا عن معنى الانزياح. وقد ورد كل من الإخراج والشقاء في خطاب استباقي تحذيري يعرض فيه مآلات الوقوع في المحذور قبل وقوعه، وقد جرى النهي لآدم وزوجه إنذارا لهما عن طاعة العدو والوقوع في فخّ استدراجه مما سيؤول بهما إلى عاقبة الخروج من الجنة. فسلطانه عليهما لم يكن متحققا ما لم يأذنا به بتمكينه والاستماع إليه ومقاسمته والقرب مما حُرّم عليهما، فكان النهي هو خطاب تحذير مسبق من مغبة ستؤول عاقبتها إلى الخروج من النعيم، والشقاء في الأرض. ومعنى الشقاء لا ينفصل أيضا عن صورة المجاوزة والبعد والانزياح. فالشقاوة ضد السعادة[5]، وفي مقاييس اللغة "الشين والقاف أصلٌ واحد صحيح يدلُّ على انصداعٍ في الشيء، ثم يحمل عليه ويشتقُّ منه على معنى الاستعارة."[6] حيث تنشق النفس عن مرغوباتها وعن حظها في دار الكرامة بفعل ما كانت تظن أنها تنال به ملكا أو خلودا. فكان التجاوز انشقاقا وخروجا عن المسار الكوني المفطور على الطاعة والامتثال.

مما سبق، ومن خلال مدارسة الفعل الانزياحي لفعل آدم عليه السلام، تبيّن أهمية هذا الحدث ودوره في بلورة الشخصية ونموها، فقد كان هذا الحدث الانزياحي يمثل هرم العقدة السردية ونقطة التأزم فيها، وهي المرحلة التي تتشابك فيها الأحداث حتى تبلغ الذروة بحثا عن انفراج، ثم رسم الخطاب لها في نهاية المطاف خطّة انفراج بأساليب مختلفة حددها السياق. فمرة كانت بفعل التوبة: " ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ **فَتَابَ** عَلَيْهِ وَهَدَى"[7]، ومرة بتلقي خطاب التوبة مختصرا: "فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ

---

[1] الاستشراف في القصة هو" تقنية زمنية تتمثل في إيراد حدث آتٍ، أو الإشارة إليه". ينظر: مدخل إلى نظرية القصة: 74، جميل شاكر، سمير المرزوقي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد:1996م.

[(2)] لسان العرب: 373/12.

[(3)] المصدر السابق.

[(4)] ينظر: تفسير التحرير والتنوير (بتصرف): 433/1.

[5] لسان العرب: 181/10.

[6] المعجم الوسيط: 489/1.

[7] سورة طه، آية: 122.

فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ"[1]، ومرة بتصريح وتفصيل خطاب التوبة: " قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين"[2]. ومن الجلي المدهش بأن هذا الحدث في قصة آدم في جميع مواضعه لم يقدح في صورة الشخصية المثالية النموذجية العالية في شخص آدم عليه السلام، ولم ينزع عنه مقام الاصطفاء والخيرية، ولم يُسحب بسببه بساط الاستخلاف في الأرض، بل ظلّ آدم -عليه السلام- في مقام الاصطفاء، ورسم بانزياحه مسار للتوبة بعد الخطأ وللأوبة بعد الخرق، وبدء مرحلة جديدة في حياته يتحقق فيها عمله الاستخلافي الموعود به في الأرض. وارتقى آدم بتوبته واصطفاه الله له بأوبته ليكون من المصطفين الخالدين، فقال عز من قائل: "إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين. ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم"[3] وقال: "ثم اجتباه فتاب عليه وهدى"، لتكون تلك اللقطة المشهدية الانزياحية في قصّته حدثا حيويا يرسم للمتلقي خارطة طريق نحو الرجوع بعد النكوص، والوقوف بعد السقوط، واستئناف العمل الاستخلافي بعد رتق الفتق الذي أحدثه الذنب.

المحور الثاني : توظيف الانزياح في تشكيل شخصية موسى عليه السلام:

تعدّ شخصية موسى عليه السلام من أكثر الشخصيات النامية حضورا في القرآن الكريم؛ فقد ورد اسمه 136 مرة في القرآن الكريم. وتواترت أوصافه العالية في مواضع متفرقة ظاهرة ومضمرة؛ فهو من أولي العزم من الرسل على الراجح من أقوال المفسرين[4]، وهو كليم الله: " وكلّم الله موسى تكليما"[5]، ونصره على أعتى قوة في زمانه، وأيده بالمعجزات الباهرة.

ومع هذه الأوصاف العالية في حق موسى عليه السلام إلا أن الخطاب القرآني في مواضع متعددة لم يُغفل إبراز بعض المواقف التي تنزاح فيها الشخصية عن الصورة المثالية المطلقة، بإظهار جانبا من ضعفها البشري، ما يستحث على التفكير ويثير التساؤل لدى القارئ، ويعمق السؤال لديه: ما جدوى هذا الكشف؟ وما القيمة الدلالية الظاهرة والخفية التي يرومها الخطاب من وراء هذا الإفصاح؟ من أمثلة ذلك ما يلي:

أولا: الوكز المؤدي إلى القتل الخطأ.

ورد خطاب (الوكز) كفعل انزياحي قامت به الشخصية النامية - موسى عليه السلام- في مواضع مختلفة من القرآن الكريم:

- في سورة القصص من منطوق الراوي في سرد متتابع للأحداث:" فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ. قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ

[1] سورة البقرة، آية: 37.
[2] سورة الأعراف، آية: 23.
[3] سورة آل عمران، آية: 34.
[4] ينظر تفسير الطبري: 506/23، وينظر: تفسير القرطبي: 213/16، وتفسير ابن كثير: 278/7،
[5] سورة النساء: آية: 146.

لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (17) " القصص:15 -17

- في سورة طه، من منطوق الراوي في حوار مباشر مع الشخصية في سياق التذكير بالنعم: "وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا" طه:40

- في سورة طه من منطوق فرعون في حوار مباشر مع موسى عليه السلام على سبيل المن والتهكم: "قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ. وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ. قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ " الشعراء: 19-23

لقد تناول الخطاب القرآني هذا الحدث الانزياحي من حياة موسى عليه السلام في لقطات مشهدية بأساليب مختلفة: مرة مسرودة من قبل الراوي متبوعة بحوار مباشر مع الشخصية، ومرة في خطاب حواري مباشر مع الشخصية في سياق التذكير بالنعم، ومرة من منطوق الشخصية المعادية (فرعون) في خطاب استعلائي تهكمي.

إن إيراد هذا الكشف بأساليبه وسياقاته المتعددة له أثره الكبير في سياق التلقي، إذ نلمس فيه نموّا للشخصية وتطورا في الأحداث دون أن نجد لهذا الفعل قدحا لمقام الشخصية أو انحسارا في دورها ولا في مسيرتها الإصلاحية، فلم يكن فعْل القتل قصدا وإن كان (الوكز) قد تسبب به، ولكنه الاندفاع الفطري البشري لنصرة المظلوم مما أدى إلى (القتل الخطأ)، وقد كانت هذه النتيجة صادمة وغير متوقعة متلبسة بالدّهشة والندم والشعور بالإثم، فنجد تأزما في داخل الشخصية، وتراكما لمشاعر الندم والخوف والترقب للمستقبل المجهول. في هذا السياق نجد الخطاب يرسم خارطة طريق لتجاوز هذه المحنة، يعرضها الخطاب بفنية فريدة في مواضعها المختلفة، ابتدأت بالتحرر الداخلي من ربقة الإثم بالرجوع السريع والتوبة النصوح في ردة فعل سريعة برزت في خطاب الشخصية: "قال هذا من عمل الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ. قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ"، في الآيات السابقة تتجلى خارطة الانفراج بدءا من الداخل النفسي من خلال المناجاة في خطاب قولي داخلي/منولوجي، اعترفت فيه الشخصية بسوء الفعلة، بنسبتها وإسنادها إلى الشيطان، وفي هذا الإسناد تجرِّد الشخصية ذاتها من رغبة الشرّ أو التشفي من المعتدي، وما ذاك الحدث إلا نتيجة للانفعال القوي الذي تلبس بالشخصية وعززه الشيطان، إذ مكّنه من القضاء على غريمه دون قصدية مسبقة من الفاعل، لذا قال: "هذا من عمل الشيطان، إنه عدو مضل مبين"، ثم عمد إلى اللجوء إلى الله بالاعتراف وطلب المغفرة: "رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي"، وأخير في العزم على استثمار القوة والصحة الموفورة في العمل الصالح بعدم مساندة الظالمين: " قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ "[1].

[1] سورة القصص، آية: 17.

إن كشف الخطاب عن (الانزياح الفعلي /الوكز)، ونتيجته الصادمة (القتل الخطأ)، له دوره التأثيري العميق على متلقي الخطاب في الزمن الممتدّ، يتجلى هذا الأثر من خلال المعالجة الفورية للحدث بعد وقوعه: بعدم الإنكار، أو التبرير، أو الانغلاق والضمور والانحصار في ألم الشعور بالإثم أو الإحساس بالإخفاق الأخلاقي المفضي لليأس، ولكن كان بالرجوع والتبرؤ عن سوء القصد، والاستغفار والتوبة، بل والعزم على جبر التقصير بتسخير النعم في إسناد العدالة. إن شخصية قيادية كشخصية موسى -عليه السلام- تسعى في الإصلاح والتغيير في ذلك الجوّ المشحون بالظلم والطبقية الذي غذّاه جور الاستبداد الفرعوني لابد محفوف بالمخاطر، ولكنها الشخصية قد خُلقت وشُكّلت وصيغت على عين الله سبحانه وتعالى في خطاب تجسدت فيه المعاني في رمز بشري حقيقي، وليس ورقيا من نسج الخيال، فقد صوّر الخطاب حدث الوكز على سوئه وبؤسه بوضعه في إطاره الطبيعي بوصفه حدثا عارضا، ويرسم له خط التجاوز. أما في النموذج الثاني: فإنّ خطاب (الوكز) قد ورد من قبل الراوي- عز وجل- في سياق تذكير الشخصية بالنعم، حيث عبر الخطاب في حوار مباشر عن تجاوز الشخصية لهذه المحنة بـ(الإنجاء من الغمّ)، فما كانت الشخصية قادرة على التجاوز بجهدها الفردي إلا باستعانة بالله وعودة إليه بعد أن أزلقه الشيطان في فعل انفعالي كان غايته فيها نصرة المظلوم. فالآية الكريمة تكشف عن الانزياح في قالب سردي متتابع من قبل الراوي -عز وجل- في حوار أحادي استرجاعي لماضي الشخصية المحفوفة بالعناية بدءا من الطفولة حتى بلوغها الرشد، فكان خلوصه من ربقة الذنب هو نعمة جليلة تستحق الشكر، بدءا من الخلوص النفسي بالأوبة والتوبة لتتابع بعدها سيل الأحداث المعبرة عن الانفراج بتسخير الله له من يحذره من ائتمار القوم على قتله بعد أن شاع خبره لدى الفراعنة، ومن ثم التوفيق بالخروج من أرض مصر إلى مدين بعد خوف وترقب. إن هذا الحدث في هذا الموضع على ملابساته الثقيلة يمثل اختبارا وابتلاء على الشخصية ما كان ليتجاوزها وينجو منها دون عون من المولى ورعاية، بل إنّ هذا الحدث على انزياحيته عن المثالية يعدّ جزءا مكملا ومنضجا للشخصية النامية، وكانت النتيجة قدرا ربّانيا سيق إليه حتى تكتمل ملامح القيادة في هذه الشخصية تكتسب من خلالها الخبرة التي تؤهلها للوقوف واستئناف الطريق في الدعوة والإصلاح. إن الأحداث التابعة للوكز من الخروج الاضطراري من تلك البيئة المشحونة بالظلم والاستعباد والطبقية، إلى بيئة مدين الرعوية الوادعة، جميعها تدبير رباني عبر عنه الخطاب بـ(الصناعة) حين قال: " وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي"[1]، فقد شاءت إرادة الله أن يتأهّل في (مدين) بالزواج من ابنة شيخ مدين، والعمل لديه عشرة أعواما وفاء بالعقد حتى بلغ الأشدّ، ثم عاد إلى موطنه مصر وقد اكتملت مؤهلات القيادة والريادة ليكلّف بالرسالة في طريق العودة عند جبل الطور حيث كلمه الله تكليما في تلك البقعة المقدسة وكلفع بالرسالة. على مستوى التلقي، فإن إيراد هذا الحدث في سوق النعم يعدّ من إعجازية الخطاب القرآني، يستثير كثيرا من الأسئلة: هل الأخطاء البشرية تعدّ في بعض أطوارها نعمة؟! وهل تقود بعض الأخطاء البشرية إلى النضج والفهم والحكمة؟ وهل من الممكن أن تكون الأخطاء البشرية قدرا يبدو في ظاهره الشرّ، ولكنه يستبطن في أكنافه

[1] سورة طه، آية: 39.

الخير والنضج والرحمة؟! إن المعالجة الموسوية للحدث في الخطاب، بدءا من (الاعتراف، والتقبل، ثم اللجوء إلى الله بالاستغفار والندم، ثم العزم على عدم العودة) تعدّ خارطة طريق للمتلقي تقوده للنجاة من الغمّ: "فنجيناك من الغم" هو نجاة للروح قبل أن يكون إنجاءً للجسد؛ لأن الوقوع في ربقة الخطأ واجترار النفس له بجلد الذات والشعور بالحرج، مما قد يعوق الشخصية عن النمو والوقوف والتجاوز لهذه المحنة، فقدرية الخطأ نافذة، ولها آثارها المؤلمة على النفس، فكان هذا النموذج الموسوي مثالا يحمل رمزية النضال مدعّمة بخطوات عملية للعاملين المخلصين، وأن العبرة تكمن في ضرورة تجاوز الأخطاء، واتخاذها جسرا ومعبرا للتصحيح والتفكر لاستئناف العمل دون يأس أو نكوص.

- في النموذج الأخير، أورد الخطاب الحدث الانزياحي (الوكز)، من خلال منطوق فرعون التهكمي الاستعلائي على موسى عليه السلام حين أتاه يدعوه إلى دين الله وقد كُلّف بالرسالة، وكُلّف أيضا باستصحاب بني إسرائيل وإخراجهم من مصر، فنجد أن الحدث الانزياحي قد سيق في خطاب حواري مباشر بين فرعون وموسى عليه السلام، يمنّ فيه فرعون بعطائه ونعمائه على موسى، بأن أبقاه حيا حينما كان رضيعا وقتما كان بنو إسرائيل يذبّحون بأمره، ويمنّ عليه حينما رعاه في قصره حتى شبّ يافعا، ولم يأخذه بعد بجريرة القتل التي هرب بها من عقابه ومجازاته، يقول: **"قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ. وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ. قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ "**[1]. لقد عبر الخطاب من منطوق فرعون عن الحدث بـ(الفعْلة)، وفي عدم التصريح به استعلاء وتهكّم مضمر لتضخيم هذا الحدث والتشنيع عليه؛ فهو أقبح من أن يذكر. ومن المفارقة أن هذا الخطاب صادر من فرعون الذي كان ولا يزال يمارس أبشع الجرائم في بني إسرائيل جهارا نهارا متعمّدا قاصدا دون أدنى شعور بالذنب، ودون محاسبة من أحد، فهو يعدّ نفسه إلها يشرع لنفسه القتل والتذبيح للأبرياء وفعله فعل مبرر للحفاظ على ملكه ومملكته، فكان الردّ من موسى -عليه السلام- أن **"قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ. فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ. وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ. قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ.."** لقد اعترف موسى بالخطأ أمام فرعون ولم يتنصّل ولم يتنكّر ولم يبرّر، بل اعترف بانزياحه عن الصواب (فعلتها إذا وأنا من الضالين)، ثم واجه فرعون بلغة موارية تحمل الاستفهام الإنكاري لهذه المفارقة المخلة: "وتلك نعمة تمنها عليّ أن عبّدت بني إسرائيل؟" أي: كيف تمنّ عليّ بالنعمة وقد أهنت قومي؟! ولو لم تقتل بني إسرائيل لربّاني أبواي، فأيّ نعمة لك علي في استعباد شعب بأكمله؟ وإذلاله وممارسة أبشع صور الظلم في سلبه حريته وإنسانيته؟ فلما أقام موسى عليه الحجة، انتقل خطاب فرعون إلى المراوغة وتغيير موضوع الحوار بقوله: "وما رب العالمين؟".

[1] سورة الشعراء، الآيات: 19 -23.

المحور الثالث : توظيف الانزياح في تشكيل صورة يونس عليه السلام

يقول تعالى: " وإن يونس لمن المرسلين. إذ أبق إلى الفلك المشحون. فساهم فكان من المدحضين. فالتقمه الحوت وهو مليم. فلولا أنه كان من المسبحين. للبث في بطنه إلى يوم يبعثون"[1]

يتصدّر الآيات السابقة خطابا تأكيديا بمؤكدين:(إنّ واللام) ليشكّل مطلعا استفتاحيا لقصة يونس - عليه السلام- مبدوءةً بالحدث الانزياحي: (الأبق): يقول تعالى: "وإنّ يونس لمن المرسلين. إذ أبق إلى الفلك المشحون"، فـ(إذ) الظرفية متعلقة بـ "المرسلين". ويخلص المعنى بهذا إلى: "أنّ يونس عليه السلام من المرسلين حتى في هذه الحالة"[2]، أي حالة الأبق. والأبق والإباق هو: هرب العبد من سيده دون إذنه [3]. وكأنّ الخطاب يريد أن يؤكد ويثبت المقام العالي ليونس الرسول عليه السلام حتى في حالة أبقه، وبقائه في مقام الرسول حتى في طور الحدث الانزياحي، ويُبرز الخطاب حدث (الأبق) في فاتحة القصة ليكون الحدث الأبرز الذي أدّى إلى تصاعد الأحداث وتشابكها حتى بلوغها القمة، أو ما يعبر عنه سرديّا بالعقدة، التي آلت بيونس إلى بطن الحوت وهو مليم، ثم تترسم بعدها أحداث الانفراج عبر أفعال متتابعة تمثلت في حدث التسبيح والمناجاة التي قامت بها الشخصية النامية داخل بطن الحوت وهو ما يمثل موقف الأوبة والرجوع عن الأبق، ثم تتابع الأحداث التي تمثل مسار النجاة والانفراج بدءا من الخروج من بطن الحوت، إلى الاستقرار على اليابسة، ومن ثم التلطف به بإظلاله بورق اليقطين الذي أنبته الله له، إلى العودة إلى القوم الذين هجرهم دون إذن مولاه؛ ليستأنف العمل بالتكليف الذي أمر به، ليجدَ القوم قد آمنوا بالله حال غيابه، وصدقوا برسالته بعد رحيله، لأنه وحده سبحانه من يملك هداية القلوب إليه. وأن على المرء الطاعة والامتثال للتكليف وإرجاء أمر الهداية إليه وحده. وقد عبر الخطاب بعد ذلك عن خط الانفراج بالنجاة من الغمّ: **"فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ"**[4]، لتتجسد في شخصية يونس عليه السلام رمزية العودة بعد الأبق، والنجاة بعد الكرب، والتحرر بعد الحبس، والانتقال بعد التوبة من الفضاء الضيق إلى الواسع، ومن المخوف إلى الآمن، ومن المضطرب إلى القار، لتتحقّق بهذه السردية خطابا مرجعيا يستلهمه المتلقي في حال أبقه من التكليف في كل عصرٍ وجيل، لتكون قصة يونس بكل انعطافاتها خارطة طريق له في أيّ تأزم مماثلٍ محتمل. وخلاصة القول يجد المتأمل أن حدث (الأبق) الذي أسند إلى يونس عليه السلام كان مثقلا بحمولة معنوية رمزية تحمل في طياتها كل فعل انزياحي مماثل ليرسخ لدى المتلقي أن الهروب والتخلي عن رسالة الإصلاح والتغيير لغياب النتائج المرجوّة هو انكسار وخروج عن المعيار وانحراف للمسار الصحيح، ليرسخ في ذهن المتلقي بأنّ (الأبق) هو ضيق وليس سعة، وهو هروب وليس نجاة، هو انسحاب وليس معالجة، وأنّه مشكلة وليس حلًّا. لقد أبدع الخطاب القرآني في نظم القصة وسرد أحداثها، ووصف أبعادها المكانية والزمانية في تضافر فريد أسهم في تشكيل صورة الشخصية، وإبراز أحوالها الظاهرة والباطنة. فالفلك الذي فرّ إليه يونس وُصف بـ "المشحون"،

---

[1] سورة الصافات، الآيات:139-144.

[2] انظر: مشكل إعراب القرآن. مكي بن طالب، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. www.qurancomplex.org

[3] ينظر: إعراب القرآن وبيانه:8/ 310، محيي الدين درويش، دار ابن كثير، ط4، دمشق:1415هـ

[4] سورة الأنبياء: آية: 88.

متناغما مع الحالة النفسية للشخصية المشحونة من موقف الصدود والمعارضة من قومه، فكان أبقه عن صبر التكليف ومهمّة الإبلاغ هو انتقال من الضيّق إلى الأضيق عكس مراده، أي انتقل من ضيق الصدر المشحون بالغضب والحزن إلى الفلك المشحون بالناس والخطر، ويزداد الضيق حين يشتد الكرب بالفُلْك ليستهم القوم، فيقع السّهم عليه ليكون الخلاص منه نجاة للفلك. ثم ينتقل من البحر المضرب الذي يضيق فيه النفَس إلى بطن الحوت المشحون بالضيق والعزلة والظلمة. لقد لعبت تقنية المكان في تسليط الضوء على الأحداث بفنية معجزة؛ فـ (الفلك، وبطن الحوت، والعراء) جميعها فضاءات طاردة مضطربة، والإنسان بفطرته يبحث عن المكان الآمن القارّ، والظليل المأهول. فنجد حركة النفس في السرد تتشاكل مع حركة المكان في الانتقال من الضيّق إلى الأضيق، فمن ضيق الصدر، إلى ضيق الخطر، إلى ضيق العزلة. ثم تتسع الدائرة بفنية سردية تتجه نحو الانفراج الذي بدأ بحدث الفيئة والرجوع إلى الله، وهي حركة تبدأ من النفس/ الفضاء الغائب المستور تجلت مظاهرها على اللسان بالتهليل والتسبيح. إن قصة يونس عليها السلام بإبراز حدث الأبق وتبعاته كانت خارطة نجاة يستلهم منها المتلقي ما يقومه أثناء رحلة الإعمار في الأرض، وأنها بهذه الحركية الفريدة تخرج من خصوصية القصة بشخوصها وفضاءاتها لكي تمتد في الزمان لتكون خارطة نجاة وخلاص لكل من آمن قلبه وخلصت نيته ومعتقده، قال تعالى: "فاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ".

الخاتمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، ثم أما بعد ،،

فقد انتهيت ـ بفضل الله تعالى ـ من هذا البحث ، وبعد مدارسة لنماذج ثلاث من الشخصيات النموذجية لكل من (آدم عليه السلام، ويونس عليه السلام، وموسى عليه السلام) نجد أن الانزياح في الفعل كان سمة إغناء وإثراء للشخصية وللحدث في آن أسهم في تكامل الشخصية وتشكيل رمزيتها بأسلوب لم يخل من جمالية تحمل الكفاءة التواصلية بإضفاء طاقة تعبيرية من شأنها التأثير على المتلقي ليصل إلى التماهي معها في مواجهة أزماته وهو في مسعاه الإصلاحي متمثلا خطوات الشخصية المثال في التجاوز والمعالجة. إن مدارسة الانزياح في صورة الشخصية النموذجية هو خروج بها عن المألوف والعادي لتلمس ملامح الشخصية الدينامية والحركية في حركة السرد وعملية التلقي لها، حيث تتسع دائرة المعنى في الموقف الانزياحي وتتعدد فيها الدلالات، فيتمثل في انزياحها قوة دلالية أسهمت في تصاعد الحدث حتى بلوغ الذروة أو ما يعبّر عنه سرديا بالعقدة السردية وحتى الوصول إلى خط الانفراج.

إن الانزياح في تصوير الشخصية النموذج في خطاب القصة القرآنية قد أكسب الشخصية والحدث جمالية مضاعفة لأنها تلامس ذات الضعف البشري عند المتلقي ما يمكنه من الاقتراب والتماهي مع الشخصية النموذج والالتحام مع جوهرها وتقبل مفارقاتها، وملامسة النواة الفطرية في الجوهر الإنساني في استعداده الفطري نحو الصواب والخطأ معا، وقد أقسم الله بهذه النفس لعظمتها فقال: "ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها". إن إيراد تلك الانزياحات في مستوى الحدث الذي تقوم به الشخصية النموذج له دوره التأثيري الكبير على مستوى التلقّي حيث تتلاقح تلك الصورة مع جوهر المتلقي وترسم له الطريق في معاركه اليومية مع انزياحاته المتعددة، وترسم له أيضا طريق المعالجة بخطابات متعددة في مواقف مختلفة لتعينه على التجاوز.

ويخلص البحث بالقول بأنّه إذا كان مدارسة الانزياح الأسلوبي على مستوى اللغة له وظائفه في تفتيق الدلالات المتعددة، كذلك هو مدارسة الحدث الانزياحي في السّرد، له دوره الكبير في تشكيل الحدث ونمو صورة الشخصية النامية، فانزياحها وإن كان خروجا عن المثال المألوف والمعتاد، فإنه من شأنه أن يوقد فتيل المعنى لدى المتلقي. إن الخطاب القرآني الفريد إذ يكشف عن هذه الانزياحات ويسلط عليها الضوء ليس احتفاء بها ولا لأنه "يهتف بالضعف الإنساني، ولكنه الخطاب الذي لا يزور الحقيقة، بل يبرزها في نماذجه البشرية كي تغدو صالحة للتمثل والاقتداء".

ثبت المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- الأسلوبية الرؤية والتطبيق. يوسف أبو العدوس. الأردن، دار المسيرة: 2007م.
- إعراب القرآن وبيانه. محيي الدين درويش، دار ابن كثير، ط4. دمشق: 1415هـ
- الانزياح في التراث النقدي والبلاغي. أحمد محمود ويس. اتحاد كتاب العرب، دمشق: 2002م.
- الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية. أحمد محمد ويس. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت: 2005م.
- التحرير والتنوير. ابن عاشور. محمد الطاهر. تونس. دار سحنون: 1997م.
- جامع البيان في تفسير القرآن. الطبري، محمد بن جرير بن يزيد الطبري. بيروت: دار المعرفة،1990م.
- شعرية الانزياح. خيرة جمرة العين. مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر، الأردن: 2002م.
- صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. د.ت.
- طريق الهجرتين وباب السعادتين. أبو عبد الله محمد بن ابي بكر بن أيوب ابن القيم الجوزية، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة: 1429ه.
- في نظرية الرواية – بحث في تقنيات السرد. عبد الملك مرتاض، عالم المعرفة، الكويت، 1998م.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. الجامع لأحكام القرآن. تحقيق: صدقي العطار، بيروت: دار الفكر، 1999م.
- لسان العرب. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد. بيروت: دار صادر، 2003م.
- مدخل إلى نظرية القصة. جميل شاكر، سمير المرزوقي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد:1996م.
- مشكل إعراب القرآن. مكي بن طالب، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. www.qurancomplex.org
- المعجم الوسيط. إبراهيم مصطفى وآخرون، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، إستانبول- تركيا. د.ت.
- معجم مصطلحات التحليل النفسي. ترجمة: مصطفى حجازي، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1987م.
- معجم مصطلحات التحليل النفسي. جان لابلانش، ج.ب. بونتاليس. ترجمة: مصطفى حجازي، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. 1987م.
- معجم مقاييس اللغة. ابن فارس، أبو حسين أحمد بن فارسبن زكريا. تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت، دار الفكر. 1979م.

Employment of displacement in forming a developing character in the Quranic story

numbers

D. Fawzia Saleh Alwi Al Habashi

Assistant Professor of Literature in the Department of Arabic Language - College of Arts and Humanities - King Abdulaziz University - Saudi Arabia.

Email: Falhapshi@kau.edu.sa

Extract

Research marked with (employment of displacement in shaping the image of the developing personality in the Quranic story) presents a study on the displacement in the narrative action that is assigned to the developing personality in the Qur'anic story speech by taking the story of (Adam, Yunus and Moses, peace be upon them), models for study, as the research studies the active role of the dispute In the growth of the model, in the escalation of the narrative event until it reaches the narrative knot and then reach the breakthrough line.

This stylistic study that sees in (displacement) pursue the pillar of literary work and the literary aesthetic by its departure from the ordinary and the simple direct meaning to the higher discourse with a multiple meaning, transcending the language of the discourse to the element of the narrative event that imitates its elected characters of this study .

The study of the displaced act of developing characters in the speech of the Quranic story has a great influential role in stirring the communication process with the recipient, achieved by its realistic beauty to form the image away from the legendary perfection, achieving harmony and harmony with the recipient in its consolidation of the human nature of the ideal personalities, and the possibility of denying and tracing the impact of the drawing road map. In narration to be an antidote to any likely likely commitment.

Keywords: displacement, developing personality, narration